



ياسر عرفة توفيق
كاتب وقاص



موضع خطوة

لم يكن الشاعر العربي ملما ومحيطا فقط بأهمية التخطيط الصحيح الواعي حين قال:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقا عن غرة زلجا[1]

بل تعدى الأمر ليسبق أساطين التخطيط وعباقرة الإدارة وجهابذة التطوير بهذا التركيز والوعي بأهمية التخطيط إلى الدرجة التي جعلته يتخير أين يضع قدمه.

في الحقيقة أحاول أن أصل إلى درجة الوعي بأهمية التخطيط السليم التي ملكت على الشاعر فكره فخرجت منه هذه الكلمات المعدودات والتي تمثل، في نظري، قمة الوعي بأهمية التخطيط.

ليت شعري أين نحن من هذا الفهم ومن هذا الإدراك بأهمية التخطيط ومنا من يقطع مسير حياته وقد قطع العشرات من سنوات عمره، والتي لا نستطيع بحال من الأحوال أن نعد كم خطونا فيها من الخطوات عبر آلاف الكيلومترات، وقد عاش ومضى ولم يحقق شيئا في حياته.

نعم إن كل خطوة من مسيرة حياتك خطوة ثمينة كان من الممكن ألا تصنع بها شيئا ذا قيمة، ومتى تتابعت هذه الخطوات الثمينة أثمرت في النهاية عملا ذا قيمة قد يتعدى نفعه إلى غيرك، بل قد يعم البشرية.

إن كان هذا عن حسن تقدير موضع الخطوة، فأجمل بهذا المنهج الذي حمل عنك هما تقدر كل خطوات مسيرك، ليتكفل بوضعها في موضعها الصحيح، فمن جميل ما تميزت به التربية الإسلامية وفق تنشئتها لفردها أنها لا تسمح للسلبية أن تجد لها طريقا لهذه الشخصية التي أرادت لها أن تكون سوية، بل تجعل فردها مميزا بالإيجابية، ألم تنظر إلى ذلك الصحابي الذي جاء يطلب من النبي ﷺ أن يرسم له مسار معاملاته مع غيره، ولما شرع النبي الكريم يعدد للصحابي ما يجب أن يفعله حيال حقوق الآخرين عليه، والرجل يرد على النبي الكريم: أرأيت إن لم أستطع؟! وصل به النبي الكريم ﷺ إلى أن يقول له في النهاية: «أن تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك»[2].

والمعنى عظيم من أن تحيط به الكلمات حين يبدأ المسلم في الانطلاق بهذا المفهوم وهو يخطو الخطوة الأولى في التعامل مع الآخرين؛ أن يكف شره عنهم، فإن كانت قصرت به همته وعزيمته أو حتى ظروفه المعيشية أن يكون ذا نفع لهم فلن يعدم أن يكفيهم عناء شره بأن يحبسه عنهم، ومن هذه الخطوة الأولى تنبثق خطواته التالية وفق القاعدة العظيمة «لا ضرر ولا ضرار»[3].

وتتوالى بعدها خطوات هذه المنظومة الأخلاقية المتكاملة والتي لا تتوقف عند مجرد كف الشر عن الآخرين أو عدم إلحاق الضرر بهم، بل هو جزء من هذا المجتمع وهو من ركاب سفينته كما شبهه الرسول الكريم ﷺ في حديثه عن السفينة، وكيف لو أنه ترك لكل واحد منها أن يتصرف دون أن يضع في حساباته وجود الآخرين وتأثير فعله عليهم، لكان في ذلك هلاكه وهلاكهم.

وتتسامى الشخصية المسلمة وهي تتابع خطواتها في مجتمع تسوده الإيجابية ويحوطه التكاتف والتآزر، حتى يرى صاحبه أن من تمام إيمانه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فليس الأمر فقط بأن يأمن الآخرون بوائقه، بل يتعدى الأمر إلى درجة أعلى من الإيجابية، حين يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذه وحدها كفيلة ليس فقط بأن تجتز الحسد والتباغض والحقد، بل وتحل محلها التراحم والتعاطف والتآزر في مجالات النفع.

وترتقي النفس البشرية في ظل هذا المنهج وتنتظم خطواتها على درب الصلاح والفلاح حتى تراها يوما بعد يوم تتفوق عن سابقه وتنظم خطواته سلسلة من النجاح ويمر في مسير خطواته بمراحل تقطعها همته وعزمته جراء الخطوة الأولى الصحيحة إلى أحسن. فيها تقدير الموضع، فما يستوي عنده يومان.. وكيف يستويان؟! وهو يرى ذلك غبنا له والغبن قد يأتي من أن خطوات جديدة لم تضف تقدما في مسير حياته ولم تختلف عن خطواته السابقة.

هذه الخطوات متى استقامت فما تعرف نهاية لمسيرها الخير، ذلك وإن ارتسمت هذه الخطوات على أرض البشر إلا أن قلب صاحبها هناك يسبح في آفاق رحبة من حب العطاء والبذل والبحث بين البشر عما يرضي رب البشر.

قال عبدالله بن بريدة: شتم رجل ابن عباس فقال: «إنك لتشتمني وفيّ ثلاث خصال: إني لآتي على الآية من كتاب الله فلوددت أن الناس علموا منها مثل الذي أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يقضي بالعدل، فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبدا، وإني لأسمع بالغيث يصيب الأرض من أرض المسلمين فأفرح به، وما لي بها من سائمة أبدا»[٤].

إن يأخذ بنا العجب كل مآخذ من جميل قول ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أن هذا العجب يزول لعلمنا أن هذه ثمرة من ثمار هذه التربية التيترباها ابن عباس رضي الله عنهما وفق هذا المنهج العظيم، وقد انتظمت خطواته خلف خطوات النبي ﷺ وهو الذي أردفه مرة خلفه وهو يعلمه بكلمات من نور كلنا يكاد يحفظها عن ظهر قلب، لكن لم تخالط معانيها العميقة شغاف قلوبنا: إني أعلمك كلمات: «احفظ الله يحفظك...» الحديث[٥].

ويالها من كلمات بها انتظمت الخطوات فكانت مسيرة حبر الأمة.

كلما قابل الإمام أحمد بن حنبل ابن الإمام الشافعي، محمد بن محمد بن إدريس الشافعي القاضي، كان يقول له: «أبوك من الستة الذين أدعو لهم كل ليلة وقت السحر»[٦]، والمعنى كبير لا تعيه إلا النفوس المؤمنة التي انتظمت خطواتها على درب الفلاح فتآخت في بوتقة المحبة.

يروى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب أنه كان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ حتى إنه لينزل المنازل التي كان ينزل فيها النبي، ويصلي في كل مكان صلى فيه، وتعهد شجرة كان النبي ينزل تحتها بالماء لئلا تيبس. وكان يقول لناقته تمهلي لعل الحافر ينزل على الحافر، أي على أثر حافر ناقة رسول الله ﷺ.

إنه فهم وسلوك يعلم صاحبه أن في اقتفاء هذه الخطوات ليس نجاته فقط، ولكن رفقة النبي ﷺ حيث تطيب الرفقة، ولا يمكنك بحال أن تدرك مدى تأثير هذه خطوة التي جعلت رجلا أوروبيا ببلده يستوقف رجلا مسلما توالت رؤيته له، وهو يراه يلتقط ما يعيق سير الناس في الشارع الأوروبي فينحيه جانبا، ولما سأله معجبا بهذا الفعل الحضاري، أجابه المسلم بأن ذلك من تعاليم الإسلام بل إنه يعدها من خصال وشعب الإيمان وذكر له الحديث المعروف عن شعب الإيمان، وأن أدناها إماطة الأذى عن الطريق. أعجب الأوروبي بهذا، وطلب منه أن يحدثه أكثر عن الإسلام بعدما رأى صورة إيجابية لفرد من معتنقيه، والخطوة الطبيعية في هذا السياق المتسق، والخطوات المتابعة الصحيحة؛ كانت نتيجة لأن أسلم هذا الرجل عن فهم واقتناع.

والدارج على ألسنة الناس عندما يدفعون أحدا نحو الاهتمام بأمر ما أن يقال له: لابد أن تتخذ خطوة إيجابية حيال هذا الأمر.

كم كانت نظرة ذلكم العربي نظرة عميقة وفهمه ثاقبا حتى وصل للخطوة؟! والخطوة أصل الحياة؛ بل بدايتها:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا زلقا عن غرة زلجا

الهوامش

١- البيت من قصيدة أولها:

مـاذا يكلفك الروحات والدلجا
البر طورا وطورا تركب اللججا

للشاعر محمد بن بشير الخارجي ٥٠-١٣٠ هـ/ ٦٧٠ - ٧٤٧ م - شاعر أموي عاش في المدينة المنورة في مكان يسمى الروحاء.

والبيت في شرح ديوان الحماسة للتبريزي- دار القلم بيروت الجزء الثاني ص ٣٤، والمعنى تأمل موضع قدمك قبل أن تضعها فمن مشى في مكان الزلق على غفلة منه زل.

٢- الحديث في صحيح مسلم - كتاب الايمان.

٣- متن الحديث عن أبي سعيد سعد بن سنان الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»، حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما، مسندا، ورواه مالك.

٤- حلية الأولياء لابن نعيم.

٥- الحديث عن ابن عباس قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

٦- الوافي بالوفيات (١٠٧/١)، السير (٢٢٧/١١).